التـــربية في الإســـلام

مصطفى الشريف

أكتوبر 2015

FONDATION POUR L'INNOVATION POLITIQUE
fondapol.org

FONDATION POUR
L'INNOVATION
POLITIQUE
fondapol.org

www.fondapol.org

مصطفى الشريف

التربية في الإسلام

ترجمة

عبد الحق الزموري

أكتوبر 2015

مؤسسة التجديد السياسي (*Fondapol*)
هي مركز بحث وتفكير (ثنك تانك)
ليبرالي تقدمي أوروبي

نيكولا بازير: رئيسا
غريغوري شرتوك: نائب رئيس
دومينيك راينبي: مديرا عاما
لورونس باريزو: رئيسة المجلس العلمي والتقييم

تنشر المؤسسة هذا الكتيب في سياق اهتمامها بالقيم

المستشار العلمي لسلسلة قيم الإسلام هو عالم الإسلاميات في جامعة ستراسبورغ إيريك جوفروا

العنوان بيد الخطاط راني روابح

التربية في الإسلام

مصطفى الشريف

فيلسوف وكاتب، أستاذ بجامعة الجزائر

المسألة التربوية هي الشغل الشاغل للمجتمع. ولكل حضارة صيغتها حول هذا الموضوع المحوري. توجد، لا شك، تقاطعات واختلافات. ولكن الجميع اليوم يُقرّ بأن التربية هي ما يحدد قيمة المواطن، ومستوى التقدم ومشروع المجتمع. تطرح الحضارة الإسلامية نفسها حضارة التربية على الوسطية، طريق القسط، التي أضلَّ عنها المتطرفون اليوم. التعليم الناجح في الإسلام هو ذاك الذي يُكوّنُ مواطنا متوازنًا، متمكّنا وصالحا. تبقى المهمّة في تفسير ذلك المثال.

التربية، لإنشاء كائن متوازن

تَعتَبرُ الحضارة الإسلامية غير كافٍ أن نُدرّب الناس على القراءة والكتابة والحساب وتقبّل المعلومات ليكونوا متوازنين وناجعين وسعداء. لا شك إن التحكّم في الأساسيات ضروريٌ ولكنه غير كاف. لا بد من التكوين على ما به نكون متوازنين، كاملين، ووسطيين، لأن نقصان أي واحدة منها يتسبب في

غرق الذات. يعني ذلك أنه إلى جانب المعرفة العلمية والتقنية، وهي أدوات التطور، لا بد من أن نُحصّل، أن نُربّي، وأن ندفع إلى التفكير في كنه الإنسان وعلّة الوجود، دون حصر أو إكراه.

وفي قلب تلك المقاربة نجد الأخلاق، والتأنّس، واحترام الحياة والغيرية، احترام تنوع الآراء والثقافات، تنوع العالم والروحانيات، باعتبارها إثراء متزايدا. لا يمنع ذلك من تعليم أساسيات التوحّد، والتنويه بالسردية الوطنية، وبالمعالم المشتركة، والخصوصيات، في جو من الحوار مع قيم أخرى ومع الكوني. صحيح إن الإيمان مسألة شخصية، حميمية وخصوصية، ولكن دراسة الأديان والتدريب على التفكّر في هذا البُعد الإنساني مشروع.

إن تصريف الواحد والمتعدد غير قابل للتجاوز إذا ما أردنا نشر ثقافة العيش المشترك. إن التعليم الحقيقي هو ذاك الذي يقوم على قاعدة أنْ لا أحد يملك احتكار الحقيقة، ولا يمكن لأي بُعدٍ أن يُجيب وحده عن حاجيات البشر. تصدُرُ الأخلاق التعليمية عن احترام القيم المشتركة والمتعددة، حتى يمكن تجاوز الأنانية الشخصية والانغلاق. ومن ناحية أخرى، فإن الأمثل هو أن نصرّف ثقافة استقلالية الفرد، من

خلال تنمية الحس النقدي لديه، مع نقد الذات حتى تصبح حرة ومسؤولة، وتعدّ نفسها في ذات الوقت لاحترام الشخصية الجماعية والملكية المشتركة.

إن هذا التوازن، المشابه للتوازن بين الواحد والمتعدد، العلة والمآل، الحرية والقانون، المؤنث والمذكر، النجاعة والأخلاق، الذي يرنو إليه الإسلام في العالم كله في الأزمان المعاصرة لم نتمكن من تحقيقه عبر التربية والمثالية المُحتذاة، وذلك بسبب تطرف هؤلاء وأولئك، الذين يميلون مع واحد من الأبعاد. واليوم، وفي مواجهة الانفصام والاضطرابات – ضياع البوصلة، أزمة السلطة، أزمة المعرفة والرابطة الاجتماعية، غياب الأخلاق، الأزمة الاقتصادية – من الحكمة اكتشاف خصوصيات التعليم في الحضارة الإسلامية.

إن نجاح النظام التربوي مسؤولية مشتركة بين المربّين والأولياء والمجتمع المدني والدولة والطبقة السياسية والنخب. خاصة وأن المدرسة مهددة في آن من قوى الانكفاء على الذات كما من قوى تسليع العالم. أما في مستوى التطور فإن المربّين في المجتمعات المسلمة يواجهون مشكلة (أو توتّر) المنع المكثف من جهة، وغياب المنع من الأخرى، كما يواجهون الفصل

الفاحش في المعارف بين الإنسانيات والعلوم التقنية، بين المردودية والقيمة الأخلاقية.

الهوية في الإسلام متعددة ومتطورة، وهي تفعل وتعبّر، بأشكال متنوعة، عن معنى العلاقة بالزمن وبالفضاء وبالآخرين وبما وراء العالم. ومن حق أيٍ كان أن يركّز على هذا الجانب أو ذاك من جذوره، من مساره، أو من هويته، ولكن بشرط ألا يرفض ذلك الحق للآخرين، أو أن يهمّش أو يلغي الأبعاد الأخرى المشكّلة للذات البشرية. لا أحد يمثل وحدة متجانسة.

وفي هذا السياق يصبح سؤال القيم حاسما، بمعنى المعالم والمعايير التي تحتاجها المدنية، والعيش المشترك. وإذا ما أرادت أمّة بلوغ مرتبة الحضارة، فإن الإسلام يجيب: بأن ذلك ممكن فحسب بالتعليم الكامل، الذي يأخذ بعين الاعتبار الحاجات الروحية والأخلاقية والثقافية، وليس الحاجات المادية والاقتصادية فقط. ولبناء مصير مشترك، تقترح الحضارة الإسلامية عدم تعارض العقل العلمي مع الروحانية، ولا القيم المحلية مع القيم الكونية، ولكن دون أن يقع الخلط بينهما.

التعليم بالنسبة إلى الرسول (ص)، وقد أشار بأنه جاء "معلّمًا"، هو ذاك الذي يشجع على البحث الحر والعلني والمشترك عن الخير والجمال والقسط، وهو المحدد لكل مناحي المجتمع. أن يتساءل المرء عن مستقبل الإنسانية، باعتباره كائنا حرا ومسؤولا، فذلك مساهمة في الإعداد له والحفاظ عليه وكشف المخاطر عن طريقه. هذه هي المعركة التي تقترحها الحضارة الإسلامية، معركة القيم المؤسِّسة لمدينة متحضّرة، ولإيكولوجيا إنسية، من خلال اختراق الاختلافات والتعارضات. ويعتبر الإسلام إن نقطة تجمّع الأضداد هو الفرد نفسه، فهو المِحكّ الذي يقدّر الحقيقي، ويختار، ويفعل، وهو الذي يُنتج هذه الفكرة، هذه القيمة وليس غيرها. والتعليم الناجح يعزز مهمّة مزدوجة: فهو من جهة يؤكد شخصيته بهدف توسيع قدرته على الاختيار إلى المطلق، والتحكم في حاجياته وفي رغباته؛ وهو من جهة أخرى يتشكّل من قدرات علمية ليكون صالحا للمجتمع. يكون المواطن عندها قد حصّل تعليما مزدوجا: تعليما دنيويا عقلانيا وتعليما قرآنيا نبويا يدعو المرء إلى معرفة ذاته، واكتشاف أصل العالم الذي نعيش فيه ومآله. أما التربية المعاصرة فهي تختلف عن تلك التي تقترحها

الحضارة الإسلامية، لتركيزها على العلم وعلى المظهر الخارجي.

لا تستهدف الحضارة الإسلامية فقط تنمية العالم بكل حرية والهيمنة على أشيائه، بل أيضا الحيلولة دون أن نصبح عبيدا للمادة، وأن نقاربها بحكمة، من خلال القيام بمجهود لاستبطانها. وإذا كانت المغامرة المقترَحَة على العالم هي مغامرة الاختيار الحر والمُبدِع، فإن المصير المطلوب من المسلم تحقيقه هو أن يضُمّ إلى ذلك إمكانية التكريس الحر للعبادة وللروحانية، مع الأخذ بعين الاعتبار القيمة الأخلاقية. أما الطريقة فهي الصياغة بين العقل والإيمان دون خلط ولا تعارض.

وتكون التربية منقوصة إذا لم تكن تجربة تغييرية للكائن الكامل. إن الاستجابة لحاجيات النجاعة والمردودية والإنتاجية مشروع، ولكنه غير كافٍ. فالتربية الإسلامية ليست فقط معارف علمية وثقافية وتقنية مرتبطة بالكفاءة والتمدّن، وتملّك الذات للموضوع، بل أيضا تجربة تغييرية للذات نفسها. لا يمكن أن يقتصر التعليم على خلق الأفكار والصياغات والمواد والقيم، بل يتعدّى ذلك إلى إبداع الكينونة. ولا يمكن أن يتقلّص إلى اكتشاف العالم بالعقل العلمي

فحسب، بل يجب يعلن عن مكانةٍ للإنسان، وعن نمط حياة، ومعنى للعالم منفتح لا ينغلق أبدا. يهدف التعليم في الإسلام إلى التحسيس عبر اقتراح أجوبة، رمزية ولكنها ذات دلالة لمجموع الحاجيات النفسية والأخلاقية والاقتصادية والثقافية، الذاتي منها والموضوعي. تريد هذه الرؤية أن تكون شاملة، دون أن تكون شمولية.

تكمن المشكلة في عالم اليوم في المعرفة المتشضّية، المنفصلة، والمتناقضة. المقاربتان مفصولتان عن بعضهما بحواجز بالرغم من تكاملهما: فمن جهة نجد طريقة التربية على قيم العقل، والحقيقة الدينية، والثقافة الروحية، واللاهوت؛ ومن جهة أخرى التربية على المناهج العقلانية، وعلى الملاحظة العلمية، وعلى الحساب والبرهنة. مسلكان في المعرفة لا يُعارض بينهما الإسلام، بل يعيد صياغتهما. وهو ما أعطى الثقافة الإغريقية — العربية والحضارة الإسلامية الكونية، وهي القريبة والمختلفة في آن من المسيحية واليهودية. لقد عرفت التربية الإسلامية إنسيتها الكلاسيكية، وعبر العرب أعادت أوروبا اكتشاف أفلاطون وأرسطو.

الحضارة الإسلامية والتعليم

لا يستهدف التعليم الإسلامي فقط جميع أبعاد الذات البشرية، بل يوجب ذلك. فالتمسك بالروحانية التي تدرب على الأفعال الجميلة، وعلى الاستقامة، يُعتبرُ حيويا وضروريًا لتجاوز محن الحياة والسموّ، مع الاعتماد أيضا على العقلانية. بزغت الحضارة الإسلامية إثر "نزول" "الوحي" الذي بدأ بالأمر بالقراءة، بالتعلّم، بالتلاوة. إن التفقّه والتعلّم والتفكّر والبحث عن المعرفة هي الواجبات الأساسية.

يقوم الوحي بتطوير معنى العلوم، المعارف الكونية، النزعة الإنسية، مفهوم المدينة، والدولة، العلوم وفن العيش المشترك بشكل متوازن، وذلك عبر ممارسة الانفتاح. بقيت السرعة التي انتشر بها الإسلام لُغزا أمام المؤرخين، في حين أن ذلك حصل في نفس الوقت بسبب الطبيعة المنفتحة للرسالة القرآنية التي تعلّم وتُحسّسُ وتحرر، والسلوك الإنساني للمسلمين، والأزمة الكونية لذلك العصر. ساهمت الحضارة الإسلامية في النزعة الإنسية وفي النهضة وفي الحداثة.

لا يرتبط العلم والتربية اللازمة لتكوين مواطن كامل بمنطقة معينة؛ فهي ليست عربية ولا أوروبية، بل كونية. وهي تتطور بفضل التبادلات والتفاعلات

والنقد المختلف. والعالم الإسلامي الكلاسيكي كان يبحث عن المنهج الوسط، المشروع المجتمعي القائم على القسط، التركيبة بين العقل العلمي والقيم الروحية، ومن هنا جاء النقاش بين ابن رشد (الفيلسوف المسلم الأرسطي) والغزالي (العالم والمتصوف المحمدي)، وبين المعتزلة (المسلمين القائلين بأوّلية العقل) والحنابلة (أصحاب التيارات التقليدية). ولم تمنع تلك التأثيرات الفلسفية الإغريقية من جهة وتأثير التيارات التقليدية من جهة أخرى طيلة قرون سبعة من بلوغ مستوى الحضارة الوسطية. كان الخوف فقط على الانتباه لتلك الإسهامات من أي جهة جاءت.

إن تركيب العلوم وحصرها وتبويبها قد مثّل ميدانا مهما لدى الباحثين العرب. وكان كتاب "إحصاء العلوم" للفرابي (ق 10) ذو دلالة في المجال. فعلى عكس ما يُروَّجُ له من أفكار مسبقة، لم يكن الفكر العربي ليهتم فقط بالأمة والجماعة والكائن المشترك وعلم نشأة الكون، بل أيضا بالمدينة الفاضلة، وبالفرد المتعلم، أي بالإنسان. وتحتوي اللغة العربية على مفاهيم عدّة للتعبير عنه: الشخص، الفرد، الإنسان، الذات، البشر، العبد ...

يعلّم الإسلام معنى العيش المشترك، أي النظام العادل للمدينة، ولكنه ينأى بنفسه عن مسائل الحُكم. هو لا يفرّق بينها ولكنه لا يخلط بينها أيضا، ولا يتجاهل الأبعاد الجوهرية للوجود. يرتكز التعليم على خصوصية الكلّي تلك، دون لُبس أو تعارض. وهو يأخذ بعين الاعتبار الكائن العادي، الحاجيات الفردية، الممارسات التي تتجاوز تعارض المصالح، ويشمل كل أعضاء المدينة. يُراد لمعرفة الحقيقة الدينية وقيم العقل أن يكون محركا يوفّر المعنى للجماعة. والتعليم الناجح بحسب الإسلام هو ذاك الذي يتوجه إلى الكائن في كلّيته، يحترم جذوره، وتاريخ كل شعب وشخص، والخصوصيات، والسياقات. وهو لا يتموقع خارج الحياة، ولا ينزع إلى التطابق في كل شيء. كلٌ حسب خصوصيته ونيته ومعقوليته، يُحيل إلى نفسه على قاعدة رؤية للعالم. ومن هنا كان تعليم الممارسات العلمية والممارسات الروحية مرتبطان بشكل حميمي في آن.

الإنسان الكوني

يرتكز أحد جوانب القوة في التعليم الإسلامي إلى ذلك المثال الكامل والوسطي للإنسان. وسطي بمعنى

متوازن، منفتح وشامل، لا يهمل أي بُعد من الأبعاد. ويجب على المسلم أن يحافظ على علاقة بالعالم قائمة على المعارف الدنيوية والروحية (العلم والمعرفة)، وعلى العلوم والأفعال المنطقية للتحكم في العالم وفي نفس الوقت اكتشاف الروحانية، الشريعة والحقيقة، الأخلاق، الآداب والإحسان. ولا بد أن يُعمِلَ فكره وأن يهتمّ بالكائن المشترك، بالعيش المشترك، مع الحذر في نفس الوقت من الأنانية والطائفية، ومن النزعة العلموية والشكلانية.

يهدف التعليم إلى الأنسنة، الأخذ التدريجي بيد "السالك" إلى درجة التوازن المستبطَن، للحصول على مهارات والولوج إلى حياة مشتركة عادلة مع الآخر. والطريق نحو الوصول إلى هذا المستوى المتحضّر هو طريق الوسطية، عبر اتّباع النبي، "الإنسان الكوني"، مع تحمل مسؤولياتنا لما نملكه من نعمة العقل.

يوجد فكر تعليمي إسلامي ذو خصوصيات، يسائل الفلسفة والثقافات الأخرى. ولا يمكن للمسلم الاكتفاء بالنظريات والتجريد والخطابات الفضفاضة التي تحلّق فوق قسوة الواقع واستقلال الفرد وما يواسيه. لا يكفي أن يؤمن، ولا أن يتعلم أيضا. لا بد أن يتثقف، أن يتقاسم ويُحسِّنَ من طباعه عبر التحكم

في رغباته، دون أن يدير ظهره للعالم. إن تعليما موَفَّقًا هو ذاك الذي يحتاط من السفسطة التي لا تركّز إلا على حقوق الطفل، كما يحتاط بالمقابل من المتشددين الذي لا يرون غير الواجبات.

وأن يقال إن حقوق الطفل في التعبير هي من واجب التربية، فذاك هو المنهج الإسلامي. فالانضباط الذي يفرضه المعلّم عند الأخذ بيده، وتعليمه، وتثقيفه، وتربيته، يمكّن الطفل من التحكم في نزعات الحماسة والتقليد لديه، ومن الانخراط في الجُهد كقيمة مركزية للتقدم. يساعد ذلك على بروز الفكر والعمل على الإبداع. يتحرر الطفل، ويخرج من جهله ومن صبيانياته بفضل القواعد والمناهج الخصبة التي يفرضها عليه المعلم. ومن خلال منهج الأمر والسمع، يشجع المربّي الطفل، يُهديه موارد، ويعبّر له عن انتظارات، حتى يكون امتحان الحرية والحقوق مسؤولا، ويهدف إلى إرضاء النفس والمصلحة العامة في آن.

الرسالة القرآنية تربّي، لأنها تتوجه إلى العقل والى القلب. هي تهدف تحميل الكائن في كلّيته مسؤوليته. وفي المحتوى، فهي تدعو إلى الانخراط في الدنيا، دون أن يُلهيه ذاك، أو تغيب عن ناظريه الغايات. وهي تسمح بالربط، وعدم نسيان أن الدنيا كلٌّ، وأنها

فانية. ومن الربط بين الإيمان والعقل دون خلط، ومن طريقة التعامل على الأرض يتحدد المآل النهائي. وبالتالي فإن الإسلام يوجّه أشكال تمضية الوقت، في علاقة بالآخر، وبالعالم، وبالرغبات، ويُدمِجُ في الآن ذاته ثقافات جديدة، كما يدمج عصره. وبالرغم من التخلف السياسي الذي دام خمسة قرون، فإن ثقافة الكرامة لا تزال شامخة.

بيْد أنّه، ولأسباب عديدة مرتبطة بالضعف الحالي الذي يعاني منه النظام التربوي والفكر السياسي، وبالاستبداد، وبقوة الرأسمالية والعلوم التقنية، وبتعقّد عصرنا واستقالة قسم من النخب، بدأ المسلم يلاحظ اختلالا في قواعده وفي توازنه. ومن هنا تأتي، في سياق عصرنا، أهمية إصلاح النظام التربوي، والقيام بإعادة التقاء الفكر اليوناني بالفكر العربي إذا ما أردنا التربية بانفتاح عقلي وتحكم في عصرنا. يعني ذلك الأخذ بعين الاعتبار لكل تعرّجات الفكر الكوني وبخاصة الفكر العربي، والصوفية، واللاهوت، الخ.

يجب أن يكون المواطن قادرا على التفكّر، وعلى التدبّر بحرية، دون ذاتية ولا عاطفية ولا انفعال، ولا قراءة أيديولوجية. لا يجب عليه أن يهرب من الواقع، ولا القبول به كما هو. بالإمكان إعطاء الأولوية

لعقلانية منفتحة، والتثبّت من كيفية الدعوة الدائمة للحضارة إلى التغيير العلمي، والمُسالم، للواقع وللسياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي، في سبيل الارتقاء بوضع الإنسان. الكائن البشري في الإسلام هو في نفس الوقت عقلاني، طبيعي وروحاني. لا بد أن تُؤخَذَ هذه الأبعاد الثلاثة بعين الاعتبار في التربية.

" إقرأ " ("أعلنْ"، "كرر"، "إحفظ") هي الكلمة الأولى التي نزل بها الوحي. ولهذه الكلمة الافتتاحية تبعات، فهي تحيل على مفهوم التربية، وفك الشفرة، والكتاب، والمعرفة، وإعمال العقل المتنوّر بالقلب، بُعدٌ تناساه المنطق المعاصر. يتوجه القرآن منذ البدء إلى العقل، مع ملامسته للـ"قلوب"، للروح. وحدة المعرفة أساسية في الإسلام. نجد أن القرآن نادى حوالي 100 مرة باستعمال العقل كفعل جوهري من أفعال الإيمان، وهو لا بد أن يكون مُفكَّرًا فيه. العقل والإيمان مترابطان، بدون خلط، حتى يُحافَظَ على القسط. وإذا افترقا أو تعارضا زاغا عن الطريق. لا يُخالف الإسلام نظام الخَلْق والطبيعة البشرية. هو يؤكدهما، يُنيرُهما ويفتح أمامهما الآفاق. يهدف كلام الله إلى مساعدة الإنسان، هذا المخلوق المتميز الذي وُهِبَ عقلا

وقلبًا، على تحمّل مسؤولياته، وإيجاد سبيل التوازن. الإنسان اليوم، يفْصِلُ كل الأشياء عن بعضها، ولم يعد يعرف نفسه ولا أين يذهب، أو أنه يدّعي معرفة كل شيء والقدرة على تفسير كل شيء. تُعَرَّفُ "الحقيقة" الدينية على أنها خيالا. صحيح أن الحقيقة يمكن أن تكون لها قاعدة خيالية، وملفوظا رمزيا، بيد أن الاعتماد على اللُبس ليس خيالا.

ويبقى الحرص على الترابط المنطقي والتوازن، كما ينادي به الإسلام، هذا الدين الكامل والشامل الذي ينير العقل ويعمل على تشغيله وتعزيزه دون تداخلٍ، راهنًا. والحضارة الإسلامية لا تسمح فقط بل تفرض استعمال العقل والتطوير العلمي، دون أن تفقد معنى القيم الروحية. وبهذا المعنى، على المستوى الاقتصادي، فهي تتوفّر على عقيدة تُصرِّفُ اقتصاد السوق مع القيم، وإنتاج الثروة مع العدالة الاجتماعية.

وتقترح الروحانية نُسختها وإشارات الثروة التي تمكّنُ من القيام بسياسات تربوية قادرة على ضمان سعادة الناس، دون الوقوع في انحرافات النزعة الشيوعية، ولا في الليبرالية المتوحشة. يعلّمنا الإسلام عدم التخلي عن إشاعة السلام في العالم، وأن نتحكّم في نبضات العنف الكامنة في كل واحد منا. لا حضارة دون

الاتفاق المشترك حول قواعد مجتمعية، توافقات، تضحيات عادلة، نقبل بها حتى نتخلى عن العدائية، عن جزء من حياتنا الانفعالية، وحتى نكفل النظام الطبيعي، الوجود المشترك وأثار الحضارة.

التعليم والعقل

تصريف العقل مع القيم، والروح مع الجسد، والفرد مع المجتمع، والمحلي مع الكوني، من دون الخلط بينها هو في صُلب الثقافة التربوية الإسلامية. إن منطق البرهنة والاستدلال والحُجّة هو الغالب في القرآن الذي يتوجّه إلى العقل، عبر منهج البيّنة والبُرهان، ويدعو إلى التفكير والعقل النقدي. إن مفهوم "خلافة" الإنسان في الأرض يعني أن كل كائن مسؤول وهو أهل للحرية. وبإنشاء علاقة مباشرة مع الخالق والتركيز على الحرية خلق القرآن نوعا مسؤولا من الكائنات. بالإضافة إلى أن إدماج العرب للمعارف الهندية والفارسية واليونانية والرومانية في ثقافتهم، جعلهم يترجمون المبدأ المركزي للتربية المنفتحة، ولحُسن الضيافة، ويتحمّلون وظيفة التخلق والتجسير الكوني. وكان السبب هو الجذع المشترك.

يوضّح ابن خلدون قائلا: "وأما العلوم العقلية التي هي طبيعيةٌ للإنسان من حيثُ أنه ذو فكرٍ فهي غيرُ مُختصّةٍ بملّةٍ، بل بوجه النّظر فيها إلى أهل المِلَلِ كلّهم، ويستوون في مداركها ومباحثها، وهي موجودة في النّوع الإنساني منذُ كان عمران الخليقة".[1] كان البحث عن مدينة العدل انطلاقا من التعليم في قلب المشغل العام. والفكر العربي زاخرٌ بالآراء حول المسائل التربوية والسياسية المتعلقة بالمُلك والسلطان والتدبير والحُكم الرشيد.

يبحث الفارابي في كتابيه: المدينة الفاضلة، وتحصيل السعادة، في تحديد الملامح المثالية للمواطنين المطلوبِ تكوينهم. وهو يعطي الأولوية للعلم والكفاءة العلمية: "المدينة الفاضلة أجزاؤها خمسة: الأفاضل وذوو الألسنة والمقدرون والمجاهدون والماليون. فالأفاضل هم الحكماء والمتعقّلون، وذوو الآراء في الأمور العظام. ثم حملة الدين وذوو الألسنة وهم الخطباء والبلغاء والشعراء والملحنون والكتاب ومن يجري مجراهم وكان في عدادهم. والمقدرون هم الحسّاب والمهندسون

[1]) Ibn Khaldûn, *Le Livre des Exemples. I. Autobiographie, Muqadimma*, Gallimard, 2002, p. 94 [الترجمة منقولة من النص الأصلي باللغة العربية. **المترجم**]

والأطبّاء والمنجّمون ومن يجري مجراهم".[2]

إن التعليم والتربية والثقافة والاكتشاف واجبات أساسية في العقيدة ليتطور المرء ويتحمّل مسؤوليته. وقد أعطت الحضارة العربية الإسلامية للعالم نموذجًا تربويا، وتأويلات معرفية، وفنون مهذّبَة، وعبارات رائعة، مع تبني موروثات، وأفكار أخلاقية، وتقنيات، وأنماط حياة من جيرانها في الآن ذاته، وخاصة منهم الهنود والفُرس واليونانيون.

والتفاعل هو ذاك الذي حصل بين العلوم واللاهوت والفلسفة، الأبعاد الثلاثة للمعرفة الإنسانية التي تفرقت اليوم مع الأسف. وقد جمعت الحضارة الإسلامية بينها دون خلط. كان يُنظرُ للعلاقات بين تلك الفروع المعرفية الثلاث من جهة التبعية المتبادلة. وكان كثير من العلماء في نفس الوقت فلاسفة ورياضيون وأطباء وفقهاء ومتكلمون وشعراء وفلكيون ... وقد اخترعوا فروعا علمية جديدة كالجبر وعلم حساب المثلثات.

كانت الفترة الممتدة بين القرن الثامن والقرن السادس

---

[2]) Al-Fârâbî, *Aphorismes choisis*, (فُصُولٌ مُنْتَزَعَة) trad. par S. Mestiri et G. Dye, Fayard, 2003, p. 48
[الترجمة منقولة من النص الأصلي باللغة العربية. **المترجم**]

عشر من أكثر القرون إشعاعا، وهي قرون ابن سينا (تـ. 1037)، وابن الهيثم (تـ. 1041)، والغزالي (تـ. 1111)، والخيام (تـ. 1131)، والطوسي (تـ. 1274). ساهم هؤلاء في تطوير مناهج العلوم والعقل المثقف بغية حل المشاكل العملية والنظرية. وقد اهتمت الحضارة الإسلامية بكل العلوم القديمة، ونشَرَتْها، واستغلتها، وأثمرتها طبقا لرؤية كونية. ومكّن ذلك من ظهور نوع من العلماء الموسوعيين، المتمكّنين والمستعملين لاختصاصات علمية متنوعة. يؤكّد ابن الهيثم على أن: "نجعل غرضنا في جميع ما نستقرئه ونتصفحه استعمال العدل لا اتباع الهوى، ونتحرى في سائر ما نميزه وننتقده طلب الحق لا الميل مع الآراء".[3] ويذكّر القرآن بضرورة الصبر وتحليل الحقائق بما وراء الظاهر منها ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾.[4] شجّعت الحضارة الإسلامية على التعليم وتنقّل العلماء وأعمالهم، ما سمح بإقامة المدارس والجامعات، أكثر من أي جهة أخرى في العالم، على امتداد سبعة

[3]) ابن الهيثم، كتاب المناظر. تح. عبد الحميد صبره. I-III. الكويت، 1982. ص 62

[4]) سورة الكهف؛ آية 67 – 68

قرون، من القرن التاسع إلى القرن السادس عشر. لقد تضاعف دور المربّين في المجتمع. وكان العلماء في قمّة الهرم الاجتماعي. وتُرجِمَ التثمين الاجتماعي للمعرفة في أشكال التنظّم المبتَدَعَة من التعليم، تثمين للكتاب وإدارة جيّدة تستمع للنخب. كان تعلّم القراءة وتحصيل الكتب مرغوبا، كما يبيّنه ذلك الحكم الذي أطلقه الشاعر العباسي الجاحظ (ت. 869): "والكتاب هو الذي إن نظرت فيه أطال إمتاعك، وشحذ طباعك، وبسط لسانك، وجوّد بيانك، وفخم ألفاظك، وبجح نفسك، وعمر صدرك".[5]

يُعرَفُ علماء الإسلام في العصور الكلاسيكية بأنهم الأمهر في مجال التعليم. وكانوا يُنفقون المعارف بسخاء على طول العالم الإسلامي وعرضه. وغالبا ما كانت كتبهم تُنسخ من قبل تلامذتهم أثناء حصص التعليم التي يقيمونها. نشر المعرفة كان دارجا منذ العصر النبوي، حيث كان المعلمون مُبجَّلون ومُكافَؤون. وقد خُصصت الأماكن لتعليم القرآن ونقل العلوم منذ فجر الإسلام.

يتميز صحابة النبي (ص) المتعلمون بمرتبة خاصة. فقد

---

[5]) الجاحظ، كتاب المحاسن والأضداد. بيروت: مكتبة الهلال، 1423 هـ. ص 22

كانوا المرجع في التربية المحمدية. وكانوا ينشرون مثالا تربويا مطابقا لطريقة معلمهم. ويميز العلماء بين العلوم النقلية، وهي العلوم التقليدية المرتبطة بالدين وحوامله كاللغة العربية، والمعارف الدنيوية أي العلوم العقلية، مع ميزة عدم التعارض بينهما.

كان العالم العربي الإسلامي يتمتع بطيف واسع من المدارس، والجامعات والمؤسسات المرتبطة بالبحث العلمي. وكان مطبوعا بثقافة عالمة متعددة الاختصاصات، منفتحة، عملية، تَكْرَعُ من الثقافات القديمة. كانت المعارف الروحية تنتشر من المدينة ومكّة نحو دمشق وبغداد والبصرة والكوفة وصنعاء والفسطاط والقيروان وفاس والجزائر وتلمسان وقرطبة وغرناطة وكل المدن الكبيرة في الإمبراطورية، حول المتوسط وإلى حدود إفريقيا وآسيا الوسطى.

وقد اشتهر القَوْلُ إن "العلم في الصدور لا في السُطور". وهو قول يُأْثَرُ عن العالم المصري ابن الأكفاني (تـ. 1348)، ويؤكد من خلاله على أن الأساس هي الغايات والمنهج، التي تهدف إلى تحسين القيم الداخلية الجوهرية للعباد عبر الاتصال المباشر والتبادل.

كما كان دارجًا تنقل الطلاب بين مختلف الأمصار

لتحصيل تعليمٍ وتكوينٍ متعددٍ ومعمّق من شيوخ أعلام. وضعت الحضارة الإسلامية، دون ادّعاء الإحاطة وتفسير كل شيء، معالم أوّل "مجتمع للمعرفة الكونية"، مرتكزة في ذلك على شبكة واسعة من المدارس، وعلى سياسةٍ دعامتُها الكتاب والكفاءة العلمية، دون قطع الأواصر مع القيم الروحية.

كانت الثقافة الجماهيرية بحثا عن المعرفة لتذكّر الماضي والانطلاق نحو المستقبل: "العلم مدينة أحد أبوابها التذكّر والآخر الفهم"، كما تقول العرب في أحد أمثالها. ففي الطبيعة، الأجسام الحيّة المعقدة لا تَدين بوجودها فقط للتنافس بل للتآزر والتعاون والتبادل، حتى تُشكّل في تنوّعها واحدا. وبهذا المعنى فإن الإنسان يزدهر عندما يتربّى على الوسطية، وعندما يكون متوازنًا، حكيما. ويحافظ على صحته العقلية والمادية إذا لم يضادد الجسم مع الروح، وباطنه مع ظاهره، والواحد مع المتعدد، والشيء وخلافه.

إنشاء مؤسسات تربوية معاصرة

عندما كان جزء كبير من العالم غارقًا في أنواع من الجهل والتقوقع، كان العالم الإسلامي منذ القرن الثامن يؤكّد نفسه بأنشطة من التعليم العلمي واللاهوتي ذي

مستويات عالية وباللغة العربية. لم يكن تدريس الفلسفة واللاهوت والعلوم في أرض الإسلام مخصوصًا بأفراد بل كان تعليما مؤَسَسًا ومتناسقًا، من بغداد إلى بجاية، ومن القاهرة إلى قرطبة. فالفلسفة، وهي تطرح نفسها كعلم للتربية، كانت متداولة منذ وقت مبكّر. افتتح الكندي (تـ. 866) المنهج التحليلي التمهيدي لنشر المعارف التي ينتجها العقل. وقد دامت تلك الحركة سبعة قرون.

كما طوّر المسلمون إنشاء المدارس، ثم الجامعات، للتربية ولنشر المعرفة الكونية وتصنيفها خدمة لأكبر عدد ممكن من الناس. ولم يبق ذلك رهين عمل تقوم به مؤسسات الوقف الخاصة، بل أصبح أيضا من اهتمام الدولة والمصالح العامة. أُنشِأتْ جامعات متخصصة في ترجمة المؤلفات العلمية من العالم بأسره، وكانت كل الاختصاصات تُدرَّسُ. كانت الفلسفة والتاريخ والجغرافيا والشريعة والفلك والطب والحساب واللغات والترجمة والهندسة الزراعية والبلاغة وعلم الكلام، المواد الأكثر تدريسا.

وقد سبقت "المدرسة" ظهور الجامعات في الغرب، بما أنها كانت تجمع كل الاختصاصات، ووضعت مناهج لجمع العلوم وتصنيفها. وستُفرّخ الحضارة الإسلامية

الجامعات التقليدية، تماما كما ستقوم أوروبا بتشكيل بُعدها المعاصر. وقع بعث الجامعة العلمية الناشئة، المتعددة الاختصاصات، المنفتحة والمستقلة (المجمع العلمي) في بغداد مع الخليفة هارون الرشيد، بيت الحكمة، نهاية القرن الثامن، والتي قام ابنه الخليفة المأمون بتوسيعها. ثم أصبحت دار الحكمة، وقد تنوعت بعد ذلك على طول العالم الإسلامي.

عرفت تلك المؤسسات العلمية ازدهارها، سواء مع الرواق المخصص لكل فرع علمي، أو مُلحَقَةً بالمسجد، كجامعة القرويين بفاس (المغرب) منتصف القرن التاسع، أو قرطبة (الأندلس) مع نهاية القرن التاسع، أو الأزهر بالقاهرة (مصر) أو القيروان (تونس) أو بجاية وتلمسان (الجزائر) منذ القرن الحادي عشر. وإضافة إلى العلوم الدينية البحتة، كانت عديد الاختصاصات الدنيوية تُدرَّسُ.

لم تقتصر تلك الجامعات على تدريس مؤلفات الحضارات الأخرى وترجمتها، بل وضعوا مبادئ البحث العلمي. كانت الجامعات الإسلامية الأولى مستقلّة، حتى تلك التي ترعاها السلطات العمومية. ولإنشائها لم تكن تحتاج إلى موافقة الحكومة، ولا السلطة الدينية. كانت الرقابة قليلة، وكانت كل

الاختصاصات تُدرَّس.

لم تضع تلك الجامعات هيكلة هرمية للاختصاصات التي يقع تدريسها، بل كانت – على العكس من ذلك — تبحث عن بُعد تعدد الاختصاصات. كان المدرّسون والطلاب من جنسيات مختلفة ومن ديانات متنوعة. ومن اليونان إلى العالم العربي، ثم إلى أوروبا الأنوار، كانت حركة المعارف والمناهج والعلماء حقيقة واقعة تؤكّد العلاقات والتبادلات بين العلوم. وفي الغرب الإسلامي، على مستوى المراكز الحضرية للمغرب والأندلس، كانت المعارف والعلوم الدنيوية والفنون مدعُوّة للإجابة عن مشاكل عملية. ولم تكن العلوم الدينية وحدها التي تنمو، فأغلب فروع العلم كانت تُدرَّسُ، لأول مرة في العالم، طبقًا للنظام المعاصر، أي المرحلة الابتدائية (التعليم الأول)، والثانوية (التعليم الثاني)، والجامعية (التعليم العالي)، الذي وصفه ابن خلدون في كتاب العِبَر.

كانت حرية البحث العلمي في الفترة الوسيطة للحضارة الإسلامية، وبالذات في العصور الأموية والعباسية، واقعا معاشا. فقد كانت المناقشات والمناظرات واحترام تنوع الآراء اللاهوتية والعلمية أمرا دارجًا. وكانت مختلف المذاهب تتجاور وتتبادل إلى

درجة كان لِزامًا معه ظهور علم الاختلاف، وهي مرحلة تُؤشّر إلى الاهتمام بالتعايش. كانت المعرفة الشفوية والمعرفة الكتابية تتكاملان.

كان همّ حفظ التراث القرآني والنبوي ونشره يطبع العقول ويساهم في التناسق. ثم جاء الاهتمام بالتراث العلمي الدنيوي الكوني سريعا لينزرع مُعادًا صياغته ومُحسَّنًا، ما أحدث ثورة في المعارف وفي تنظيم الفروع العلمية. وبمواجهتهم للإرث اليوناني والفارسي والهندي وغيره، طوّر العلماء المسلمون الوضعية الإنسانية.

كان العلماء المسلمون مربّون "عصريون"، بمعنى أنهم تصوّروا وجوها بيداغوجية حاسمة وطوروها بهدف العيش المدني المشترك. ومنذ عصر النبي (ص)، وبعد ذلك على نطاق واسع ابتداء من القرن الثامن مع حكم الأمويين (661-754)، ثم بتعميمها في العهد العباسي (754-1258) والتوسع حول البحر الأبيض المتوسط، توفرت المدارس في المدن، بما في ذلك المدارس المختلطة. كانت المعرفة المنتَجَة من الحضارة الإسلامية تهدف كلّي الوجود والصالح العام، ولم تكن تخدم إيديولوجية معينة أو البعد البيولوجي للإنسانية فقط. وقد قام الفكر الغربي، على الأقل منذ الأنوار، بقطيعة ثلاثية، لا تزال آثارها ماثلة إلى

اليوم: الفصل بين العلوم الصحيحة والاجتماعية والإنسانية؛ الفصل بين العلوم والأخلاق؛ إقصاء اللاهوت ودراسة الأديان والظاهرة الدينية من الفضاء الأكاديمي. في حين قامت الحضارة الإسلامية، على العكس من ذلك، بربط كل ذلك ومفصلته. إن الأزمة التي يعاني منها العالم تفرض إعادة النظر في تلك العلاقات لنتعلّم العيش معًا من جديد. فكيف يمكن أن يُطبَّقَ التعليم الإسلامي اليوم ؟

التربية على الكوني

تطابقا مع مبادئه، فإن المطلوب من التعليم الإسلامي اليوم تدريس كيف يتعرّف المرء إلى ذاته، كيف يكتشف الحياة ويُجِلُّها، وكيف يصرّف النجاعة والهمّ العلميين مع القيم، ولا يكتفي بأن يُبقي على التنافس بينها. وبالنسبة للإسلام فإن المعرفة مرتبطة بالأخلاق وبالتحاور مع الثقافات الأخرى الذي هو شرط الأنسنة، والتعليم الناجح.

وبالنسبة لعصرنا فإن تعلّم الحكمة الكونية في تعددها، والكتابات الجليلة التي تُسائِلُ وتُذكّرُ أنْ لا شيء يُعطى مسبقًا، وأن النصوص المنفتحة الجديدة تُعيد تشغيل عقلنا لممارسة ذكائنا. فالثقافة الكونية تنسج

خيوط إنسانيتنا. ونشر ثقافة السلام عبر التبادل والثقافة العلمية، كأبعاد غير قابلة للقسمة، هي مسؤولية مشتركة. يستوجب ذلك الحوارَ والفطنةَ والمشاركة، حتى يستطيع كل واحد الخروج من نقاط عمائه ويحرر نفسه. وتلك الأخلاق التربوية للعيش المشترك هي المفقودة ويجب تدريسها. يذكّر القرآن ﴿وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّه مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.[6] اختلافات وتشابهات بين التقاليد الدينية والثقافية التي تُعتبَرُ ثراء. العولمة تعدّل الأشكال والمحتويات والمناهج الخاصة بالتعليم وبممارسة مهنة المربّي. وعدم الالتفات إلى ذلك يعرّضنا لمخاطر الطريق المسدود.

إن التبادل الثقافي وتدريس الحقيقة الدينية والأخلاق هي القاعدة ثلاثية الأضلاع التي أصبحت واحدة من الأولويات في عصرنا، مُلحَقَةً بالثقافة العلمية. يتعلق الأمر بتشجيع التبادل المعرفي. فالدين أو المسائل المعاصرة كـ"اللائكية" قد حُرِّفتْ ووُظِّفتْ. وليست مشاكل العالم نتاج مباشر للرهان الديني: إن المسألة

[6]) سورة المائدة؛ آية 48

سياسية واقتصادية بامتياز. بيد أن الجهل وغياب الثقافة يزيد من تعقيد الوضع ومن تشويه الحقيقة. فالجهل غالبا ما يكون أصل الشرور. لا تتحدث البرامج التربوية عن الأخلاق وعن الديانات والثقافات والحضارات الأخرى. وعندما تتناولها فعبر تقزيمها وتشويهها.

إن تربية الشباب على تبادل المعارف، وعلى النقد الذاتي، والعيش المشترك مسألة حيوية تساهم في إحلال السلام في العالم. ويمثّل احترام التعدد والتنوع والكرامة الإنسانية إحدى قواعد تلك البيداغوجيا. إذ أنّ أحد الأهداف الأساسية للتعليم هو سدّ النقص في معرفة الذات ومعرفة الثقافات والمجتمعات الأخرى، ووضع الأسس لثقافة تُؤسَّسُ على القيم المشتركة، وإقامة نشاطات عملية تصدر عن ذلك التبادل.

إن أهداف التربية الإسلامية المثالية متعددة، وهي مرتبطة بالشهادتين، شرط الإسلام (أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمّدا رسول الله)، وبالقواعد الخمسة التي يرتكز إليها إقامة الشعائر والتي من المفترض أن تجعل من المسلم مسؤولا، وبالأمر القرآني بالتعلّم وإعمال العقل والتفكير حتى ترتقي بوضعية الإنسان وتحررها من كل الأوهام والتخيلات والإدعاءات المفرطة:

1- **التدرّب على المعرفة،** لتحصيل أدوات فهم العالم، والمجتمع، ثقافته الخاصة وثقافات الآخرين، ما يعني تعلُّمُ أنْ تتعلم وتسمع حتى تحافظ على القدرة في تحصيل المعارف الموضوعية والجديدة طول حياتك.

2- **التدرّب على الربط،** أي أن تُصرّف الواحد والمتعدد، الفرد والمجتمع، العقلاني والروحاني، القديم والجديد، حتى يتمكّن كل فرد من أن يصبح فاعلا وحاملا للمعنى

3- **التدرب على العيش المشترك،** حتى تُشارك الآخرين وتتعاون معهم في جميع النشاطات الإنسانية. يتعلق الأمر هنا بالترويج لتعلّم "كيف ترغب في العيش المشترك"، من خلال تطوير معرفة الآخر، تاريخُه وتقاليده.

4- **التدرّب على أنْ تكون،** أي أن تتوفر على قدرة كبيرة من الاستقلالية والحُكم، وهو ما يعني بالتوازي تدعيم المسؤولية الشخصية في الاختيارات الفردية والمصير الجماعي.

وبالتركيز في نفس الوقت على الأخلاق والنجاعة، يُمكّن التعليم الناجح في الإسلام من تحمّل الأشخاص لمسؤولياتهم أكثر، ويشجّعهم على القيام بمحاسبة

أنفسهم بشكل دائم، وأن يعيدوا النظر في طريقة حياتهم والتحرك صوب من يحيطون بهم. يعني ذلك تحصيل علامات موثوقة حول الثقافة السائدة لتتمكن من الاختيار والفعل بشكل أخلاقي، من رصد القيم المفتاحية التي يجب أخذها بالاعتبار، ومن تدعيم القدرة على التحرك كـ"حامل للقيم" قادر على التوحيد وعلى الحشد حول مشروع ما، وعلى تقوية القدرة على التواصل وبناء فكر مستقل ومسؤول.

لا يريد الدين أن يكون خطابا منعزلا عن العالم، لا يأخذ بعين الاعتبار قضايا الوجود الأساسية، وخاصة منها الاقتصادية والاجتماعية. والهدف المرجو من التعليم ليس هو فرض سلوك محدد سلَفًا. بل تشجيع الإبداع وثقافة التفاوض والتأقلم المعقول، والتمكن من تشغيلها بشكل يسير. وكان الأمير عبد القادر، وهو مربّي غير عادي، يهدف الوصول إلى الامتياز:

"ولم أر في عيوب الناس شيئاً
كنقص القادرين على الكمال"[7]

[7]) Abd el-Kader, *Lettre aux Français*, Rahma, 1982, p. 80.

الإسلام، الحداثة، ومناهج التعليم

يعتمد التعليم الناجح على التطلعات القيمية (المعنى) والتطلعات ذات العلاقة بالنجاعة (المنطق العلمي). وفي الإسلام، فإن تلك الغاية المزدوجة هي ما يُراد تحقيقه، وليس الاقتصار على تعديلات تقنية للإجابة فقط عن الحاجات الملحّة سواء لمنطق السوق أو للتقاليد الدينية. لا يعني ذلك تركيبها الواحد فوق الآخر، بل وضعها في شكل متناسق. فالجودة والامتياز وارتقاء المستوى، كل ذلك يعود إلى الرؤية وإلى منهج التربية على تصريف تلك الأبعاد المتكاملة بُغية الإجابة، بشكل خاص، عن أسئلة مثل تلك المتعلقة بمعرفة تعليم نحن مطالبون بإنشائه، ولأي كفاءات نحتاج. التيار المحافظ في المجتمعات يخشى التعددية والعولمة بالرغم من أنها تمثّل ثراء. أما الحضارة الإسلامية فإنها تفسر كيف أن الانفتاح وتحمّل التهجين أمر ضروري.

وإذا ما تلافينا التغيرات السطحية، فإن إعادة صوْغ المدرسة والجامعة لا يمكن إلا أن يجيب عن حاجة مشروعة من قبل المجتمع الذي يتطلّع في هذا القرن الحادي والعشرين إلى حداثة متطابقة مع القيم الإنسانية ومع ثقافة روحانية. ويعني الإصلاح إثارة

تغييرات لدى جميع الفاعلين في النظام.

إن الأسس التقليدية لنظام التكوين قد عفا الزمن عن أجزاء منها، سواء ارتبط ذلك فقط بالعقلانية أو ارتبط فقط بالتقاليد الدينية. فاصطلاحيا، كلمة أدّب [في اللاتينية] (*educere /éduquer*) تعني "قاده خارج ..."، أو "أخرجه من". يتعلق الأمر بالخروج من مآزق الجهل والتلقين المذهبي والتضليل. وتؤدي الإختلالات إلى تعرُّض المدرسة والجامعة إلى صعوبات في التأقلم مع حاجيات المجتمع الإنساني.

وتُطرَحُ اليوم في بلاد الإسلام مسائل التطور: كيف يمكن الإسهام في الانتقال نحو اقتصاد السوق والحداثة والكوني، مع الحفاظ على العدالة الاجتماعية والقيم والدين وثقافة البلد؟ كل الأسئلة تطرح نفسها: إرساء الديمقراطية، تكوين المربين، المحتوى، تنظيم التعليم وتقسيمه، استقبال الطلبة وتوجيههم، شروط الانتقال، التناظر والحركة، التكوين المستمر، اقتسام الكفاءات بين الجامعات والمدارس العليا وسُلطَةُ الإشراف، كُلفة الموارد التي يعود للدولة توفيرها إلى القطاع المستقبلي هذا، وأخيرا نسبة القطاع الخاص. ويبقى التكوين الكيفي للنخب مرتهنا بعوامل سياسية وثقافية وعلمية.

نجد من بين المهام المطروحة على المدرسة والجامعة إعادة النظر، أولا، في الرسائل البيداغوجية التي تنشرها هذه الأخيرة بحسب سنّ المتقبّلين. ثم يأتي، ثانيا، ما يتعلق بمنهج التدريس الشمولي. أما المهمة الثالثة فهي العلاقات مع المحيط الاجتماعي والاقتصادي. وتواجه تلك المهام معضلات لا بد من تجاوزها: هل يجب عليها الخضوع، كما يقال، إلى ضرورات النظام الاقتصادي المهيمن، أم تكوين احترافيين وتكييفهم للحاجيات الاقتصادية والتقنية الجديدة، ولتطور المهن والإنصات فقط للشركات، مع مخاطر تضييق أفق المهام الأخرى وأفق الحاجيات الثقافية للطلاب ؟ أم هل يجب عليها، بالعكس، التركيز على تدريب العقل على البحث الحر، والولوج إلى ثقافة كونية ووطنية، وعلى التمتع بحرية أكبر لتحمّل مهمته النقدية، مع خطر القطيعة مع الواقع ومع حاجيات المجتمع ؟ إن الاهتمام بالمستقبل المهني للطلاب مسألة مشروعة، ولكن الأمر يتعلق أيضا بتكوين مواطنين صالحين، تحصّلوا على ثقافة وعلى معرفة وعلى مهارات تجعلهم قادرين على إعمال العقل وعلى التطور والتأقلم. التعليم الناجح، بعبارات التفاعلية، هو ذاك الذي يقود المجتمع ولا يخضع له بإطلاق.

وفي القرن الواحد والعشرين أصبح مستوى نجاعة الأنظمة التعليمية والتربوية والتكوينية في قلب الرهانات السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية. وأصبحت مسائل الجودة والحجم مترابطة كما تشير إلى ذلك منظمة اليونسكو: "ولا تزال مناطق كثيرة في العالم تشهد تفاوتا هائلا بين عدد الطلاب الذين يتخرجون من المدارس وعدد الذين يتقنون حدا أدنى من المهارات العقلية بينهم".[8]

لا تعني دمقرطة التعليم عدم وجود شروط انتقائية في الدخول إلى اختصاصات علمية أو مؤسسات، وخاصة تلك التي تعرف إقبالا كبيرا، أو في الاهتمام بالامتياز. نظريا، لا تستطيع الجامعة تجاوز طاقة استيعابها وقدرتها على التأطير، ولكن التعليم مَرفَقٌ عمومي، وكل متحصل على شهادة الباكالوريا أو كان طالبا لا بد من قبوله. يمكن أن تكون النخبة فوق الحصر، إذ لا يمكن بأي حال من الأحوال تحديد عدد الراغبين في تحصيل المعرفة، لأن المجتمع يخسر

[8]) منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو)؛ نحو تحقيق التعليم للجميع: ضرورة ضمان الجودة. الملخص، ص 2.
http://unesdoc.unesco.org/images/0013/001373/137334a.pdf (وقع الإطّلاع عليه 11 فيفري 2015)

بذلك كفاءات حين ترفض مدّها بالإمكانيات التي تكشف عنها أو تطورها.

تزيد عملية تسليع المعرفة والتعليم من تعميق الهوة الاقتصادية والثقافية والاجتماعية بين الشعوب. إن وثيقة داكار الخاصة بإطار التحرك حول الخصوصية الثقافية والتي تبنّتها اليونسكو سنة 2000، وغيرها من الإجراءات التي اتُّخذت منذ ذلك الحين تُبرِزُ معطيات واضحة عن إستراتيجية للرد. فالدَمَقرَطة لا تنفي شروط الدخول إلى اختصاصات علمية وإلى مؤسسات محددة، وخاصة تلك المطلوبة بكثرة. إن المدارس العليا والمعاهد المتخصصة تقبل المرشحين لمواصلة دراستهم من بين المتحصلين على درجات عالية أو أولئك الذين اجتازوا اختبارا للدخول بنجاح، يأخذ شكل المناظرة للحصول على عدد محدود من الأماكن المضبوطة سلفا. ذاك هو الفرز حسب الجدارة. من الصعب الاعتراض على هذا المنطق عندما تُوَفَّرُ نفس الحظوظ المتساوية أمام الجميع، وخاصة إبّان الدورات السابقة. الهدف المرجوّ هو جودة التعليم، بعدٌ يعتمد، بحسب التقرير الدولي حول متابعة التعليم للجميع الذي أنجزته اليونسكو سنة 2005، والذي يرتكز إلى معايير خمسة:

1. ***مكتسبات التدريب***، القدرة على القراءة والكتابة والحساب، احترام التنوع والتماسك الاجتماعي.
2. ***مسار التدريس***، البيداغوجيا، الزمن الفعلي المخصص للتكوين، طرق التقييم، حجم الأقسام، اللغات المستعملة في التدريس، إستراتيجيات إدارة الأقسام.
3. ***مواصفات المتعلّمين***، مهارات، معارف أولية، صعوبات عائلية واجتماعية اقتصادية
4. ***المساهمات المُساعِدَة***، التجهيزات، البرامج، المقررات، تأهيل المدرسين والإداريين، إجراءات المؤسسات.
5. ***السياق الاجتماعي والاقتصادي للتربية***، طبيعة سوق الشغل، العولمة، القيم الاجتماعية الثقافية والدينية، انتظارات السكان، أشكال الحوكمة، الموارد العمومية المخصصة للتعليم.

إن المعرفة المتناسقة والفعالة، ومعنى المواطَنَة والثقافة العلمية يمرّ عبر نظام تربوي مُجدَّد. إن إعادة تقويم المستوى الثقافي، والفضاضة، والسلوكات المنحرفة والإخلالات لا يمكن إلا أن تكون نتيجة لإعادة

توجيه الممارسات المجتمعية ومن الأولوية المُعطاة للمعرفة، مع تشريك لكل المعنيين. كانت الجامعة في زمن غابر جنوب المتوسط في قلب الإسهام الكبير الذي قدمته الحضارة الإسلامية للعالم أجمع ابتداء من القرن الثامن. لم يكن هناك أي خلط أو تعارض بين المعرفة الروحية والمعرفة الزمنية، بين المعارف الدنيوية والمقدّسة، بين الأبعاد الخصوصية والأبعاد الكونية.

لقد تطور مفهوم إصلاح البرامج، وهو مفهوم مركزي. وقد تركت مكانها في الأنظمة التربوية المعاصرة إلى مفهوم أوسع هو مفهوم "المنهاج"، المرتبط بكل جوانب النظام التربوي. ويتضمن المنهاج الشروط والمواصفات التي يجب أن تتوفر في دخول الطُلاّب وخروجهم، المسارات الدراسية، البرامج، الطرائق البيداغوجية، أنماط التقييم، المدرّسين، التجهيزات التعليمية واللوجستية. إن إصلاح المنظومة التربوية يتطلب وضع كل تلك العوامل في تناسق لإصلاح الإخلالات وبلوغ الأهداف التي تحددها الأمة لنفسها.

كل العلوم والمعارف ضرورية. يبقى صياغة المواد طبقا للمعايير الكونية والخاصة، إضافة إلى مختلف مستويات التعليم والأعمار المطلوبة. ولا يمكن

للمؤسسات الثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية أن تعمل بشكل سليم إلا إذا كانت الذاكرة حية، والسياسة متوازنة، والقواعد الثقافية متجذّرة. لا بد أن يكون النزوع الإنساني والنزوع العلمي متكاملان. ولا بد أن يهدف تدريس التاريخ والتربية المدنية والفنون والفلسفة والعلوم الإنسانية والاجتماعية بشكل عام، وهي مواد على علاقة بالمواطنة وبالاجتماع البشري، تكوين مواطن مسؤول متناسق، وهو في نفس الآن مستقل واجتماعي، يملك ذاكرة حيّة وأفق مستقبلي.

إن التركيز على العيش المشترك، وعلى ثقافة السلام والحوار، والتعريف بتراث الشعب والإنسانية وصنع عقل علمي إبداعي منفتح ومتشبث باحترام حق الاختلاف، هي واجبات في كل الأوقات. يجب أن تكون البرامج متضمّنة دروسا حول الذاكرة، ومعارف حول قيم الشعب، ورموز الدولة والمجتمع. برامج لدراسة القواعد الدُنيا لتنظيم الحياة العامة، ولمعرفة السمات المؤسسة للأمة وقيمها الثقافية والروحية، وذلك بهدف تكوين المواطنة والحس المجتمعي.

ومن الضروري ترجمة تعدد الثقافات والتحولات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في البرامج المدرسية،

حتى تتمكّن هذه الأخيرة من نقل القيم المعاصرة للشخصية الإنسانية، وإعداد التلاميذ والطلبة لممارسة مواطنيتهم في مجتمع ديمقراطي متوازن. تهدف المعرفة إلى شحذ همّة الشباب وتحسيسهم بحسب مستوى دراستهم، حفاظا لهم من كل أشكال التطرف، غير القابل للتبرير، وتشجيعا على توازن الشخصية في عمر يتميز بالدهشة والتساؤل والإبداع والاكتشاف.

طبيعي أن يتعلم الشباب طرح الأسئلة الحيوية التي تقضّ مضاجعهم. لذلك فالهدف هو بناء شخصيات منفتحة على إعمال العقل. ويجد التعليم نفسه في مواجهة رهان تصريف النزوع الإنساني مع النزوع العلمي، والدَّمَقْرَطَة مع الجودة البيداغوجية، والأخلاق مع النجاعة. المطلوب من كل مربي، ومن كل وليّ، معرفة ما يجب على التلميذ تحصيله بدقّة مع نهاية كل عام دراسي. وعليهم أن يدمجوا غايات القاعدة المشتركة، المعارف الأساسية التي يجب على التلميذ المسك بزمامها من أجل تطوره الشخصي ومستقبل تكوينه المستقبلي. يقوم المنهج على ضرورة إشراك التلميذ، والاستماع إليه، واحترامه. يقوم التعليم الإسلامي على عدم إهمال أي شيء، ولكن التركيز يكون على العقل التحليلي النقدي، وعلى الذاكرة.

ومن ناحية الشكل، فإن التركيز يكون على مواصفات جودة اللغة وعرض العمل؛ وفي جانب المحتوى يقع الاهتمام بالمنهجية المُتّبَعَة، وبالمنطق المستعمَل، وبدقة النتائج أو البراهين، وبأصالة العمل وتميّزه. مع العلم بعدم وجود قائمة مثالية من المواصفات، ولا شبكة من التعديلات والنماذج الصالحة لكل فروع العلم.

التعليم الناجح في البلاد الإسلامية هو ذاك الذي يساعد كل طفل على النجاح التدريجي في مراحل التدريب الأساسية، وبالتحديد القراءة والكتابة والحساب، وأن يحصل على معايير تتعلق بغاية الوجود والحياة في المجتمع، وذلك ليتمكّن من صنع شخصيته ومن مواجهة حالات ملموسة. يجب على المدرسة مساعدة الطفل في أن يصبح تلميذا، وفي يوم ما مواطنا، وأن يكتسب أسس سلوك قائم على قواعد المواطنة المسؤولة. والمنهج التربوي الإسلامي يتجنّب الانغلاق في منهجية واحدة، ويترك هذا البُعد مفتوحا سعيا منه لاحترام أذواق التلاميذ.

يمكن للشباب، الذي يمتلك نوعا من نُضج الحياة بما عاشه المجتمع من تجارب منذ قرون، بلوغ مستوى مرموق، حتى تكون الرأس "جيدة"، عوض أن تكون

"ملْأى" بشكل جيد. وليصبح التلاميذ مؤهّلين ومتوازنين، لا بد لهم من التدرب على مقاربة التعقيد والتطور. وفي كل مستويات التعليم، يعود إلى الطالب امتلاك التأهيل الأعلى، وذلك من خلال معرفة التعامل مع المعلومة، وطرح الأسئلة المهمة والفرضيات، والتقويم، وبناء موضوعاته، وإيجاد الحلول للوضعيات الإشكالية، واقتراح حل أو أكثر مع إقامة الحجّة. إن تلك الكفاءة في نهاية المطاف تعني أن المتعلم أصبح قادرا على التنسيق بين مختلف المعارف والمكتسبات.

يستطيع التلميذ المتعلم التقريب بين العناصر، وإبراز نقاطها المشتركة أو المختلفة أو المتكاملة. ويستطيع الربط بين عناصر متناثرة، ومَفْصَلَتُها وجمعها ومقارنتها، وخلق شبكة، دون الخلط بينها، وذلك بهدف البحث عن التآزر وعن عمل متناسق، وبشكل خاص لإنتاج المعنى. لأجل ذلك فإن مجمل مكوّنات المنظومة التربوية تحتاج إلى تغيير البوصلة بطريقة نجعل بها التلميذ في قلب العملية التكوينية.

وبالنسبة للمربين المسلمين فإن الثورة العلمية والتقنية، وكذا العلمنة تصبح معقولة، ويمكن أن يُعاد صياغتها لغاياتهم الخاصة وليس فقط الخضوع لها. يجب أن

تكون لنا القدرة على تأكيد ذاتنا كما نشعر بها وكما نريد، مع الحفاظ على انفتاحنا على العالم. خاصة وأن جوهر الحداثة، إنطلاقا من العولمة، يفرض علينا من جهة المعرفة المهيمنة، ثلاثة متناقضات:

- ***التوتر القوي بين العلم والوعي***، لأن مفهوم لانهائية البحث مفهوم دكتاتوري، بالرغم من أن البحث عن طرح حدود أخلاقية لهيجان كل الاستغلالات أمر مشروع. لا يجب أن نخاف من العلم. ولا أحد بإمكانه أو بمقدوره إيقاف التطور العلمي. ولكن من أجل أية غايات ؟ أكثر من أي وقت مضى، تفرض هذه الحكمة نفسها: "العلم بدون ضمير لا يعدو أن يكون غير خراب للروح"؛
- ***الفرد والعيش معًا***: يتميز العالم المعاصر بالفردية. العالم معاصرٌ لأنه بلغ مستوى عاليا في بحثه عن فرد حر في ذاته. فالفرد وهو في المركز، ويُعتَبَرُ علامَة خاصة بالغرب، يدّعي أنه يقدّم للعالم الطريق الوحيد الممكن للتحرر. في حين أن الرهان لا يقتصر عن كونه حُكم الفرد لذاته، بل

يعني الجماعة أيضا، أي العيش معًا؛

- ***العقل والإحساس***: أحد أبعاد العالم المعاصر هي فصل المنطق عن الإحساس.

إن هذه الميزات الثلاثة – لا نهائية البحث؛ النزعة الفردية؛ العقل المنفصل عن الإحساس – تطرح إشكالا للشعوب التي تبحث عن التناسق. مسائل جوهرية تستحق الدرس من الجامعيين. فعلى مستوى معنى الحياة، أول نقطة تثير القلق تتعلق بالأخلاق. من ينخرط في شبكة قراءة تترك حيّزا لقيم الروح و / أو إلى المعنى الديني يجد نفسه أمام تهميش مسرح الحياة. لا رابط بين العولمة ومعنى الحياة الذي تتشبث به الشعوب، وخاصة منها التوحيدية أو المرتبطة بواحدة من أنظمة الحكمة الضاربة في القدم. إنها نهاية عالم؛ ولا بد لنا من فهمه لنحاول اختراع عالم آخر مكانه يندّ عن كل انغلاق. واليوم، الحقيقة ليست هي فقط العلمنة باعتبارها حركة وضعية، بل نتائجها البديهية، "المغزى" الأخلاقي للعالم. وذلك يثير النزعات المتطرفة.

ففي المستوى السياسي، تدفع المصادرة وعدم تسييس الحياة إلى التشكيك في إمكانية أن نكون شعبا مسؤولا، قادرا على اتّخاذ القرار، وعلى المقاومة باسم

الحرية، أن تكون لنا مبرراتنا وأن نكون على حق، وأن نعمل على تحقيق مشروع مجتمعي نختاره بعد مناقشته. وعلى الرغم من تطور العلوم، ومن شرعية المؤسسات، ومن حرية المبادرة، ومن المعايير القانونية، فإن إمكانية الوجود كشعب مسؤول، مشارك في البحث الجماعي والعمومي عن العدل والجمال والحقيقة، أصبح مشكوكا فيه.

أما في مستوى المعرفة، فإن الطابع المزعج هو التشكيك في إمكانية التفكير، والتفكير بطريقة مغايرة. إن الانغلاق والتِقَنِيّة قد تغلبت على العَرَضية والتنوع والتبادل. وتهدف العولمة إلى التحكم في كل نواحي الحياة عبر استغلال نتائج العلوم الصحيحة، التي يُتمسَّكُ بها باعتبارها الوحيدة الملائمة لمنطق التطور. وبقطع النظر عن العمل الذي تقوم به العلوم الإنسانية والاجتماعية، فإن المعرفة المعاصرة تقدّم العلوم التي يقال عنها صحيحة وتطبيقاتها، رضوخا لمنطق السوق.

هناك خطر حقيقي في تدمير المدرسة والجامعة، وهي أماكن المعرفة الحرة والمجانية التي تمكّن الجميع من تصريف الأصالة والمعاصرة. إن مبدأ التمتع بتعليم مجاني على طول حياة الفرد هو أحد الأسس التي يقوم

عليها المجتمع الإسلامي التقليدي. فنظامه التربوي يقدم نفسه حاملا لقيم التآزر والعدالة بين المواطنين. والنجاح يعود أيضا إلى هذا المعيار.

خاتمة: أصالة وتقدم

إن تعليما ناجحا من وجهة نظر الإسلام هو الذي يصرّف الأصالة مع التقدم. ويهدف المثال الإسلامي إلى صياغة الثقافة العلمية مع الأخلاق، ليعلّم الشباب الحياة، حتى لا يساهم التنافس في نزع الطابع الإنساني عنهم. غاية المدرسة تكوين مواطن كفء ومتوازن، قادر على تحمل مسؤولياته؛ مدني، مبدع وحامل لقيم مشتركة، وطني وكوني في آن، حتى يستطيع تصريف الأصالة والمعاصرة.

ليس من السهولة الربط بين تلك المفاهيم المختلفة، والمعنى الذي تحمله إضافة إلى واقعها هي بصدد التشكل، وبالتالي فهي قليلة القبول في الوضعية الحالية. ولعل الأفضل هو الربط بينها دون تعارض. وينضاف إلى الأبعاد الثلاثة المتمثلة في الثقافة العامة والكفاءة العلمية والتربية المدنية، الحاجة إلى فكر روحاني عاقل، كجزء من حياتنا لإتمام التربية. لا يكفي التكوين في العلوم والفنون، لا بد من إنتاج

القيم وآداب السلوك. المطلوب من التعليم تمكين الذات من تحقيق ذاتها، كل ذاتها، حتى يجد كل واحد طريقه. والتعليم الناجح أيضا هو الذي يعطي فرصا عديدة إلى المتعلمين مع إمكانية المرور بينها.

إن التطور المستمر للوضعيات والمهن، وتعقّد الواقع يفرض اكتساب المناهج أكثر من المحتوى. وبهذا المعنى إذا كانت الأزمة في العالم أخلاقية فَلِنُقْصٍ في المدارس والجامعات التي لا تستجيب بشكل كامل لكل الحاجيات: الثقافية، والاقتصادية، والروحية، والاجتماعية. يوجد اليوم في العالم أزمة قيم وعلوم، وخاصة في العلوم الإنسانية، بسبب انغلاقها المبالغ فيه عن الإنساني وعن معنى الوجود. ولمواجهة صعوبات العالم المعاصر، يجب علينا تعليم الشباب أن يكونوا في نفس الوقت قادرين على التعامل مع تعدد الاختصاصات والتحكم في الحاجيات، حتى يتجنبوا الغرق في الاستهلاك المفرط، والتبعية. يحتوي برنامج التربية المدنية في العادة على تعليم الأخلاق، ومعرفة رموز الدولة والرموز المفتاحية في المجتمع. وهو يتضمّن القواعد الدنيا لتنظيم الحياة العامة والديمقراطية، ومعرفة الخطوط المكوّنة للأمة ومعالم قيمها الثقافية. وهو يفترض اكتشاف الأخلاق العلمانية المعاصرة، وقيمة

قاعدة الحقوق في تنظيم العلاقات الاجتماعية، من خلال مبادئ مثل "حرية المرء تقف عندما تبدأ حرية الآخر". ذلك هو التكوين والمؤانسة. استقلالية الفرد والرابط الاجتماعي: تلك هي الأهداف التي تمكّن الشخص من التأقلم مع الحياة الجماعية. الكائن البشري غير مبرمج لإشباع رغباته دون شروط، بل للتحكم فيها، بفضل قابليته للتعلم.

التعليم العلمي والمدني ضروري، ولكنه غير كاف. تدريس الحقيقة الدينية، والأخلاق والحضارات مسألة ضرورية. والدنيانية لا تتعارض مع هذه المقاربة. وبعيدا عن التقدم الهائل في مستوى العلوم التقنية، وفي منافع الحرية المدعّمة لاستقلالية الفرد، فإن قلقًا عميقا يشق عصرنا. والسؤال الذي يطرح نفسه هو: ما هي الغايات ؟ غالبية سكّان العالم يبحثون عن عالم عادل يحمل معنى. فرضت فكرة التقدم نفسها على الفكر المعاصر بفضل العمل المضاد للأخلاق وللروحانية. وقد وصل الفصل بين العقل والأخلاق إلى تفكك الرابط الاجتماعي. أدرك الاضطراب الطبيعة والمجتمع، في المستوى البيئي كما في مستوى البيولوجيا والنفس البشرية.

طَرحَتْ أسئلة الأخلاق والمعنى والحقيقة الدينية نفسها

على كل مناشط الإنسان. وبالنسبة لمن ينخرط في القيم الروحية، فإن من الواضح انحسار الروابط الممكنة بين المفهوم السائد ومعنى الحياة الذي تتمسك به الشعوب. لم تعد المرجعيات الأخلاقية هي ما يدير العالم، كما كانت الديانات التوحيدية تقوم بذلك طيلة قرون، بل المنطق المنفصل عن المعنى. مكّنت الحداثة ذات الجانب الواحد من التحرر، وخلقت في نفس الوقت تفاوتات ومظالم وتجريدا من الإنسانية.

إن البؤس الذي يعرفه الشباب، وقلق المربّين والمجتمع برمّته يفرض على الجميع الإنصات، ومراجعة منهجيته. فالمربّي، نظريا، هو شخص راشد متعلم يرافق الطفل، وكل من كان في مرحلة التكوين، في مرحلة الاكتشاف، وتحصيل المعرفة والتحكم في المناهج، لمعرفة ذاته، وتفكيك مشاكل العيش في المجتمع وإيجاد الحلول لها، وتعلم المهنة. وتتمتّع كل حضارة وعصرٍ بمنهجيته الخاصة، التي تأخذ بعين الاعتبار في نفس الوقت القيم والمبادئ التي تتحكم فيها، والغايات المرسومة.

النجاح التربوي في الإسلام يتمثل في القدرة على صياغة ما هو فعّال وما هو رمزي، العلم والأخلاق، الحق في التعبير وواجب التعلم، الخصوصي والعام.

المطلوب تكوين ذوات بشرية قادرة على تطوير إنسانيتها، وليس تكوين جسم منتج فحسب. وهذه مقاربة كونية وقع إهمالها. في القرن الثامن عشر، شدد جان جاك روسّو، في كتابه "إيميل، أو في التربية"، على أن المسألة تتعلق بفن تكوين الرجال. وهو يعلن عن مبدأ: "ليعلمْ أن الإنسان خيّرٌ بطبعه، وعليه أن يشتمّه، وأن يحكم على جاره كما يحكم على نفسه".[9] وهو يتحدث عن الأخذ بشرطين: "ألاّ يعلمَ [التلميذ] شيئا ليس لأنك طلبت منه ذلك، بل لأنه توصّل إليه بنفسه"[10] — حِرفة المربي ومهمة التلميذ لا تفترقان — و "بلا شك، لا يجب أن يقوم إلا بما أراد القيام به؛ ولكنه لا يجب أن يريد إلا ما تريد أن يقوم به؛ لا يجب عليه القيام بأي خطوة لم تخططوها له، لا يجب أن يفتح فمه إذا لم تعلموا ما سيقوله"[11] — لا يجب على الطفل تقرير ما يجب عليه تعلّمه، بل يجب عليه تعلمه من تلقاء نفسه حتى يجعل منه التكوين كائنا مسؤولا.

---

[9]) Jean-Jacques Rousseau, *Émile ou De l'éducation*, livre IV, in *Œuvres complètes IV*, Gallimard, « Bibliothèque de la Pléiade », 1969, p. 525.

[10]) *Ibid*., livre III, p. 430.

[11]) *Ibid*., livre II, p. 363

كتب الغزالي، وهو من الرواد في ذلك: " اعلم أن الطفل أمانة أهله. قلبه جوهرة بِكرٌ تقبل كل ما يطبع فيها. إذا ألهمته الخير كبر على الطاعة [..] وإذا ألهمته الشر تلبّسه [..] فحقّ حفظه، وتربيته، وتصويبه، وتعليمه حسن الخلق".[12]

أما بالنسبة للمنهج الذي يتّبعه فهو من دعاة الإنصات والشدّة: "أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه فلا يلقى إليه ما لا يبلغه عقله فينفره أو يخبط عليه عقله .. فليبث إليه الحقيقة إذا علم أنه يستقل بفهمها [..] أن المتعلم القاصر ينبغي أن يلقى إليه الجلى اللائق به ولا يذكر له وراء هذا تدقيقا وهو يدخره عنه فإن ذلك يفتر رغبته في الجلى ويشوش عليه قلبه ويوهم إليه البخل به عنه إذ يظن كل أحد أنه أهل لكل علم دقيق".[13]

وفي الوقت الراهن ظهرت علوم التربية التي لا يمكن لأحد الاقتصاد فيها، في حين أصبح التوظيف طاغيا، وهو لا يضمن أي تشغيلية. والفنون والثقافة أصبحت

[12]) Abu Hamid Ghazâlî, La Revivification des sciences de la religion, cité par Ibn Qudâma, in Revivification de la spiritualité musulmane, trad. par Mohamed Al-Farih, Iqra, 1999, p. 2

[13]) *Ibid*., p. 4.

بدورها العائلة الفقيرة، فما بالك إذًا بالروحانيات ؟ بقي علينا دفع النقاش حتى نضمن تعليما كونيا. نقطة التلاقي بين المقاربة المعاصرة والمقاربة الإسلامية هي القائمة على مبدأ التدرج في تكوين الطفل. تستدعي التربية الإسلامية النشاط المُكوِّن للطفل، وذاكرته، بحسب عمره، دون نفي الأدوار التكوينية لنقل الثقافة الذي تقوم به العائلة والتواصل الاجتماعي. الثقافة التربوية الإسلامية تأخذ باعتبارها تأثير مختلف العوامل.

أصبحت البيداغوجيا في القرن الواحد والعشرين مجموعة من الأساليب التي تعين الطفل والراشد في فترة تكوينهم على التأقلم مع التطور السريع الذي يعرفه العالم، وتعرفه المهن والمعارف. يستعمل أخصّائيو التربية المسلمين عناصر بسيكولوجية مشجّعة، بغية مساعدة كل واحد على التمتع وتحقيق التوازن بين القديم والجديد، بين الحرية واحترام القانون. يُنظرُ للتعليم كعمل شامل في بناء الشخص وليس مجرد نقل للمعارف. والتعليم قادر على تطوير التمثّلات الجماعية حول العيش المشترك.

تهدف البيداغوجيا الإسلامية عبر طرق متنوعة إلى التنشئة الاجتماعية وإلى تحرير الطاقات الكامنة في

الإنسان. يتعلق الأمر بإقامة جو من الثقة والتفاهم المتبادل بين الباثّ والمتقبّل، من خلال البحث عن التفاعلية. إن معنى البيداغوجيا ذاك يحيلنا على الطريقة التي سيتم بها القيام بالتكوين الكيفي للطفل، أكثر منه على محتوى ذلك التكوين نفسه. إن أحد المظاهر الأساسية هو خلط ما نريد نقله مع ما يعرفه الطفل مسبقا، أو ما هو قادر على اكتشافه بنفسه.

يجب أن يكون هناك تناغم تدريجي بين المعارف المدروسة في ارتباط بمفهوم التعليم والمعارف المبنية والمطلوب تفكيكها، والمعارف التي يجب أن تثق في استقلالية الطفل. وبالنسبة للحضارة الإسلامية التي تركّز على الكائن أكثر من تركيزها على المُحَصَّل، وعلى حُسن الخُلُق أكثر منه على المهارة، فإن الشباب مُطالَبٌ بالمشاركة في تعريف شروط تربية ناجحة. وبالنتيجة، فإن الفكرة القائلة بأنّ العالم الحالي يحوز "نجاحا" يجب أن يُعاد النظر فيها. ففي عالم تكون فيه المعارف متوفرة أمام الجميع، لا بد من مساعدة الشباب في إيجاد طريقهم، مساعدتهم على إبداع مساراتهم، وأن يُجددوا بطريقة مسؤولة.

الأسئلة حول معنى الحياة، والتعليم، و"تعلُّم كيف تعيش"، تناولها اللاهوت والفلسفة "العربيتين" بشكل

معمّق بمقاييس الوقت. ولا بد للمدرسة والجامعة العودة إلى ذلك، وفقًا لتساؤلات عصرنا. ففي بلاد الإسلام، في الماضي، اهتمت دراسات بالعلاقة بـ"الآخر الكلي"، أي كيف نعبُدُ الله؛ بيد أن التفكير في الطريقة المُثلى لبناء مجتمع عادل وفي التطور العلمي كان أيضا أساسيا. يعتقد المسلمون إن نموذجهم التربوي يقدّم إمكانية لمواجهة شرط مزدوج: شرط المعنى والعدالة، النجاعة والأخلاق، وذلك حتى نتجاوز صعوبات الوجود، وخاصة النفسية منها.

يتحمل المربّون مسؤولية التطبيق العملي في الواقع اليومي للسياسات الموجهة للشباب. ويقوم النظام التربوي الناجح على التفاعل بين الأبعاد الجوهرية للوجود، ما يسمح للطفل بالولوج إلى معنى المعارف، وإلى تذوّق الفكر، والشغف بالمشاركة بشكل جماعي في عالم جديد. والاقتصار على تعلم القراءة والكتابة والحساب حسر التعليم في النزعة الذرائعية.

يعتبر الإسلام إن الحاجات إلى المعنى والثقافة والأخلاق يجب أن تُثار وتُبنى وتُرافَقَ، وأن يُتَكَفَّلَ بها منذ المدرسة، وألا تُحسبَ فقط على مجال الحياة الشخصية.

ما يُشكّل المعنى ليس فقط المُفيد، ولكن ما يتعلق

بالرمز، العلاقة بمجالات الباطن، الهموم الروحية والأنتروبولوجية والأخلاقية، النفساني و"تعلُّمُ العيش المشترك" حتى لا نجد أنفسنا بلا حول ولا قوة أمام الأسئلة الجوهرية ، محكومون بدوافع عتيقة. هاجس التميز هو ما يقود الرؤية الإسلامية. الإحسان، هو الهدف من التربية الناجحة: تمكين أكبر عدد من الناس من تحصيل معارفهم وتجويدها، ليس فقط للتدرب على مهنة ما، بل للوصول إلى درجة الكمال الإنساني، وإلى القدرة على صياغة تفرّد الكائن الجمعي،أن تعرف كيف تكون.

يفترض ذلك الاعتراف بالطابع الحيوي لتساوي الفرص، وفوائد التعدد الثقافي وفوائد الكونية، باعتبارها قوة الأمم جميعها. يريد النظام التربوي الإسلامي الناجح أن يكون متوازنا. وهو ينأى بنفسه عن الأطراف: الاستبداد والتسيّب، المعارضة أو الخلط بين مختلف المعارف. إن الأفكار المسبَقَة التي تُروَّجُ عن الإسلام لا أساس لها. وبالإمكان تماما صياغة الإسلام ومثاله التربوي الوسطي مع نظام القيم المعاصرة، متجاوزين الفروق بينهما. تصريف المعارف الماقبلية مع الاختراع، والحرية مع القانون، والأصالة مع التقدم، والفردية مع العيش في جماعة، والعقل مع الروحانية، ذلك هو طريق التعليم الناجح.

قيم الإسلام

قيم الإسلام 3
الإنسانية والإنسية في الإسلام
أحمد بويردان
أفريل 2015

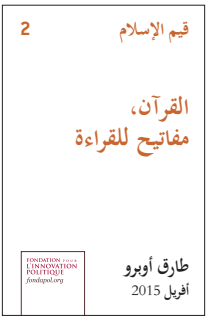
قيم الإسلام 2
القرآن، مفاتيح للقراءة
طارق أوبرو
أفريل 2015

قيم الإسلام 1
التعددية الدينية في الإسلام، أو الوعي بالغيرية
إيريك جوفروا
جانفي 2015

قيم الإسلام 6
الإسلام وقيم الجمهورية
سعد الخياري
جوان 2015

قيم الإسلام 5
الإسلام والميثاق الاجتماعي
فيليب موليني
أوت 2015

قيم الإسلام 4
التصوف: روحانية ومواطنة
باريزا الخياري
جوان 2015

قيم الإسلام 9
الإسلام والديمقراطية: الأسس
أحمد الريسوني
نوفمبر 2015

قيم الإسلام 8
النساء والإسلام، رؤية إصلاحية
أسماء المرابط
أكتوبر 2015

قيم الإسلام 7
التربية في الإسلام
مصطفى الشريف
أكتوبر 2015

قيم الإسلام 10
الإسلام والديمقراطية في مواجهة الحداثة
محمد بدّي ابنو
ديسمبر 2015

قيم الإسلام 11
الشيعة والسنّة: سلام مستحيل ؟
ماتيو تيرّيه
جانفي 2016

Fondation pour l'innovation politique

مؤسسة التجديد السياسي

ثنك تانك ليبرالي، تقدمي أوروبي

تقدم مؤسسة التجديد السياسي فضاء مستقلا من الخبرة الفنية والتفكير والتبادل، متوجهة نحو إنتاج الأفكار والمقترحات وتوزيعها. وهي تساهم في تعددية الفكر وتنمية الحوار العمومي ضمن توجه ليبرالي، تقدمي أوروبي. وتعطي المؤسسة الأولوية إلى أربعة رهانات كبرى: التنمية الاقتصادية؛ الإيكولوجيا؛ القيم؛ والرقمية.

يضع الموقع الرسمي www.fondapol.org على ذمة الجمهور جميع أعماله. وتجعل منصّتها المعلوماتية " Data fondapol " مُتاحة للجميع للولوج واستعمال المعلومات المُجَـمَّعَة في مختلف مراحل الاستبيانات وبمختلف اللغات، عندما يتعلق الأمر بدراسة عالمية.

وبالإضافة إلى ذلك فإن موقعنا الإعلامي " Trop Libre " يسلط نظرة نقدية يومية على الأحداث اليومية وحراك الأفكار. " Trop Libre " تقترح أيضا يقظة مستمرة لمتابعة تداعيات الثورة الرقمية على الممارسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وذلك عبر تخصيص خانة خاصة في الموقع يحمل تسمية " Renaissance numérique " (الإحياء الرقمي)" وكانت تسمى سابقا: Politique 2.0.

مؤسسة التجديد السياسي مؤسسة غير ربحية، وتخضع لنظام الخدمة العامة. وهي مستقلة ولا تخضع في تمويلها إلى أي حزب سياسي. مواردها عمومية وخاصة، وتتمتع بدعم من الشركات ومن الخواص، وبشكل رئيس من تنمية نشاطاتها.

La Fondation pour l'innovation politique

Les données en open data

data.fondapol

Le site internet

www.fondapol.org

Les médias

fondapol.tv

Trop Libre

Une voix libérale, progressiste et européenne

Linkedin

11, rue de Grenelle
75007 Paris – France
Tél. : 33 (0)1 47 53 67 00
contact@fondapol.org